

علماء العرب

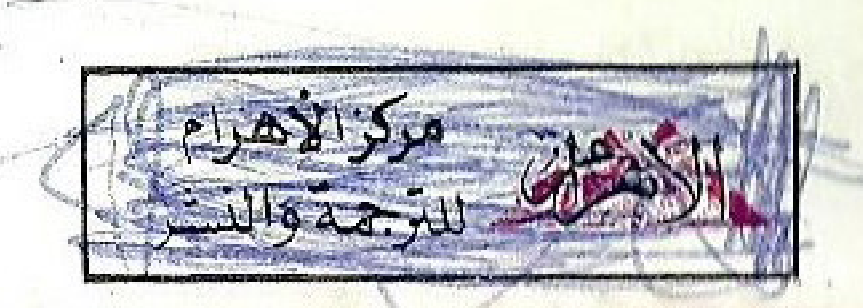
ابن رشد

آخر الفلاسفة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب



علماء
العرب
(١٢)

ابن رشد
آخر الفلاسفة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان



الصديقان

كانت قد مرّت ثلاثُ سَنوات ، حينَ قدّم قاضِى القُضاةِ « أبو القاسم أحمد » ولدَه : « أبا الوليد محمد » إلى أصحابه ، ومعَه صديقُه الفتى « ابن زُهر » . كانوا جالسين فى قاعةِ الأضيافِ الكبرى ، المثمنةِ الأضلاع ، المُحاطةِ بالعُقود ، والزخارِفِ المورّقة .

وقال لهم أبو القاسم مُشِير إلى ولدِه ، وصديقِه :

ـــ هذانِ قد عَرفا علومَ الدين على يدَىّ . حفظا القرآنَ الكريم ، وأحاديثَ « الموطَّأ » للإمامِ مالِك ، ودرسَا التفسيرَ ، والحديثَ والفِقه ، وهما يرغبانِ فى درس عِلم الكلام على مذهبِ أهلِ السُّنة من الأشَاعِرة ، وحضور مجالِسكم ، وسماعِ محاوراتِكم .

ورحّب الأصدقاءُ بالفتييْن ، وكانَا فى عُمريْن مُتقاربيْن .

ومنذُ ذِلك الحين ، وقد بلَغ « أبو الوليد » من العمر خمسَ عشرةَ سنة ، انقطعَ الصديقانِ إلى هؤلاءِ الصحب ، وكلّهم أساتذةٌ كِبار فى قُرطبة ، يجلسان إليهم حيثما كانُوا ، أو كانَ أحدُهم ، فى حلْقاتِ الدرسِ بمسجدِ قرطبةَ الجامِع الكبير ، وفى مجالسِ الفكرِ كلّما انعقدتْ فى دارٍ أو قصرْ . وكان الجدلُ يدورُ فى علمِ الكلام ، حول مذهَبٍ من مذاهبِ أهلِ السنة ، هو مذهبُ الأشاعِرة .

وسَرعان ماتكشّفتِ الميولُ الحقيقية لكلٍّ من الصديقين . تاقَ أبو الوليد ، وابن زُهر ، لدراسةِ الفلسَفةِ والطب . فقصرا لقاءاتهما على اثنين ، هما : « ابنُ طفيل » الفيلسوف ، و« أبو جعفَر هارونَ » الطبيب ، وكانتْ دِراسةُ هذينِ

العِلميْن معاً فى هذا الزمان أمرًا محتوما ، فى المشرِق العربى ، والمغرِب العربى . وفى طلبهما كان يفدُ من أرجاءِ أوربا ، على الأندلُس ، علماءً وقساوسة ، ويستقرّ بهم المقام فى قُرطبة بِضعَ سِنين .

خير بلاد الأرض

كانتْ قُرطبةُ أكثر مَدُنِ أوربا سُكانا ، وأغْناها مالاً ، وأعْلاهَا ثقافةً ، فى القرنِ الميلادِىّ الثانى عشر . وكانتْ مدينةً مترامِيةَ الأطْراف ، تحيطُ بها ضواحٍ جميلةٌ ، وأراضٍ خصبةٌ ، ويشقّها نهرُ الوادِى الكبير ، تعلُوه قنطرةٌ شهيرة ، وتتناثرُ فى أرجائِها حدائقُ غنّاء ، وقُصورٌ فخمة ، تُرَى فيها تماثيلَ الحيوانَاتِ والطيورِ ، وتلتمع بِها ، فى ضياء الشمس ، مياهُ النوافِير النجْمِيّةِ المثمنة ، ومبانٍ دينيةٌ رائعةٌ ، يتجلّى فيها امتزاجُ الطرُز المعمارية : العربيّة ، واليونانية ، والرومانية ، والقوطِيّة فى اتساق .

وكانت قُرطبةُ ماتزالُ عاصِمةً للأندلُسِ سياسةً وحضارةً ، واقتصاداً وثقافةً ، فى العصْرِ الأُمَوِىّ ، ثم انهارتْ قُرطبةُ فى عهد

ملوكِ الطّوائف قرابةَ مائةِ عَام ، لكن دولةَ المرابطين المغربية ، أعادت إلى الأندلُس وحْدَتها ، وإلى قُرطبة مجدَها ، فصارتِ العاصمةُ الثانيةُ لدولةِ المرابطين ، بعد عاصمتِهم الأولى فى مُراكش . وارتفعتْ من جديدٍ هَيْبةُ قُرطبة ، وسطوتها ، وبأسها ، فى مواجهة إماراتِ الفِرنجة ، المتربّصة بالحكْمِ العربى وبالمسلمين فى الأندلُس ، تنتظرُ فُرصَ الضعف ، وتنتهزها بالغاراتِ ، والمذابحِ ، والحروب .

وفى قرطبة ، كانتْ تتعايشُ ثلاثُ دِياناتٍ كبرى ، جنباً إلى جنب ، فى تسامحٍ دينى سائدٍ بينَ الرعَايا ، لايكاد يُخْرَقُ ويمزّقُ إلا فى أوْقاتِ المِحنِ والشّدائدِ ، حين ينزلق بعضُ المستعرِبين من المسيحيّين واليهودِ لتأييدِ غُزاة الفِرنجة . وكانت تَتَفاعُل ثلاثُ ثقافاتٍ : ثقافةُ اليونانِ والرّومان ، وثقافةُ العَرَبِ المسْلمين ،وثقافةُ العِبرانييّن ، لكنّ هِذه الثقافةَ العِبْرانية كانتْ حبيسة المعابدِ اليهودِية ، لايُشارك أحبارَها أحدٌ فى معرِفتها ، سوَى الملوكِ والنّبلاءِ والعظماءِ ، والعلماءِ والأدباءِ والفنانين ، والمترجمينَ من العربيةِ إلى العبْرية واللاّتينيّة ، ومنَ اليونانيةِ والعِبْرية إلى العربية .

وتشرّبت رُوحُ أبوُ الوليد ثمارَ هذا التعايُش ، والتفاعُل ،

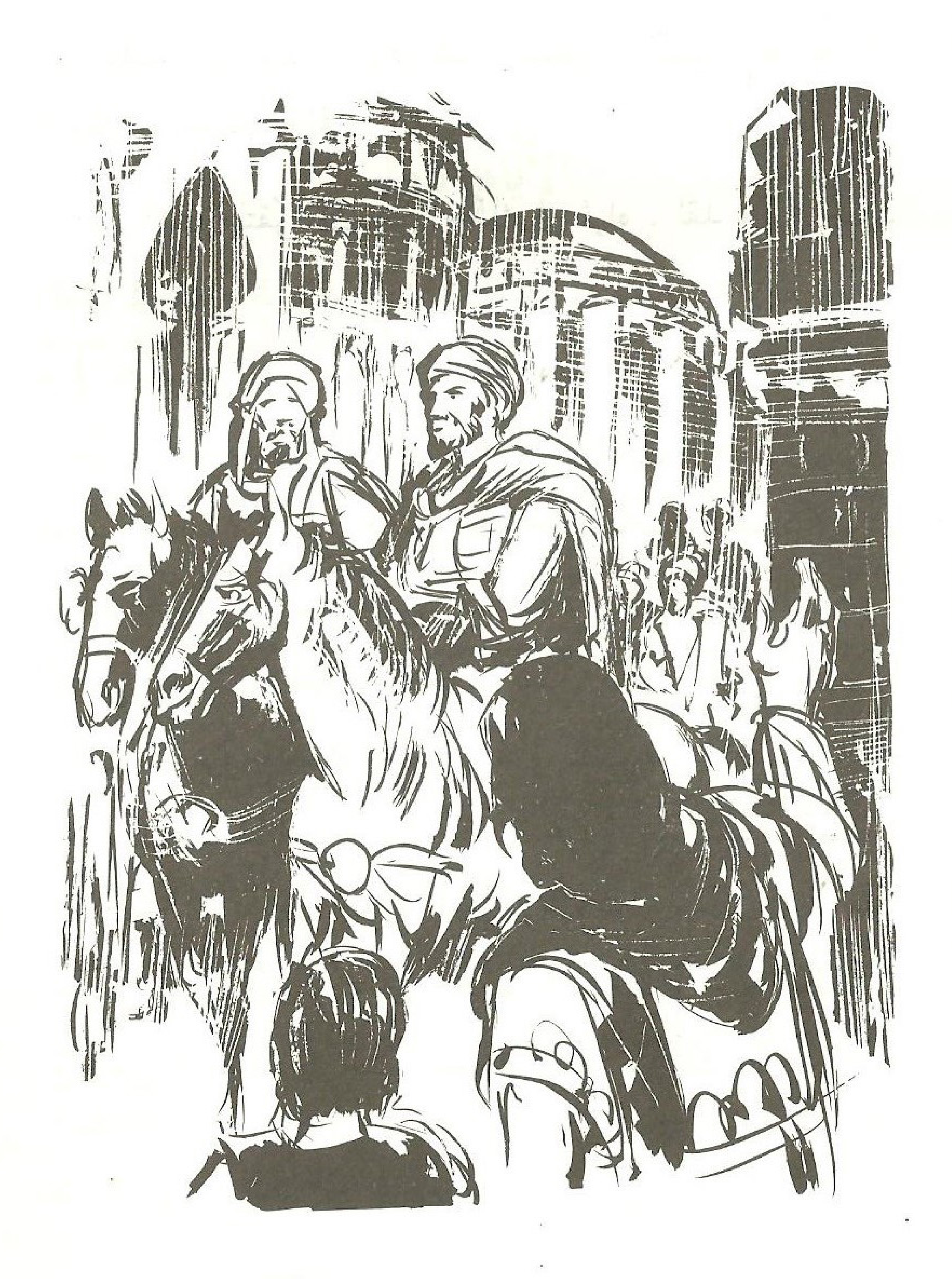
والتسامح ، فى الأسواقِ والمجالِس ، والمكتباتِ والمؤلّفات ، فاكتسَبَ احترامًا للعَقل ، وغِنًى فى المعرِفَة ، ورحابةَ صدرٍ فى تفّهم أختلاف الآراء ، وتعارُضِ وَجْهاتِ النظرِ والأفكْار ، وأحبّ قُرطبة .

قال أبو الوليد لأبيه يوما ، معبراً عن حبّه لقُرطبة :

ــ قرطبة خير بلاد الأرض ، وأهلها أذكى الناس . أحبّ فيها مايسرّ ، ومايُغضِب . ولا أرجُو أنْ أعيشَ فى مدينةٍ سواها ، أو أموتَ بعيداً عنها ، أو أدفَنَ فى غيرِ ثَراها .

على صهوة جواد

بلغَ أبو الوليدِ من العُمرِ عشرينَ سنة ، وتقدّم لنيلِ الإجازَاتِ العلمِيّة من أساتذتهِ فى علومِ التفسيرِ ، والحديثِ ، والفقِه ، والكلامِ ، والمنطق ، والفلسفة ، والطبّ ، فنالها جميعا فى حشدٍ حافل ، من العلماء والطلاّب ، والقضاةِ والفُقهاءِ ، وعُشاق العِلم ، فى المسجِد الجامعِ الكبيرِ بقُرطبة .



وعادَ إلى البيتِ عالمًا صغيرا ، ذا لِحيَةٍ خفيفة ، على صهْوة جَوَادٍ ، برفقَةِ أبيه . وأقيمتْ وليمةٌ حافِلة للعلماءِ والطلاّب فى بستانِ القصر ، ومُدت الموائدُ للفقراءِ خارجَ القصر ، تغطّيها المفارِش البيضاء ، والملاعِقُ والشوكُ والسكاكين ، التى ابتدَعها فيما مضَى الموسيقارُ زِرْياب .

وحين انفضّ السّامر ، وخَلا أبُو القاسم بولدِه ، فى قاعةِ الأضْياف ، قال له :

ــ أىَّ عملٍ تحبّ أن تلىَ أمورَه فى قُرطبة ؟

فقال أبو الوليد :

ــ لا أرضى لنفسِى بغيرِ القضاءِ عملاً ، ووسيلةً للعيْش ، لأكونَ مثلَ جدى ، ومثلَك ياأبِى ، لكنّ سنِّى مايزالُ غضًا ، والقاضِى ينبَغى أن تكونَ له من العُمرِ هيبةٌ أمامَ النّاس ، ومازِلتُ أحبُّ طلبَ العلم ، والمزيدَ من معارِفِ الطبّ والفلسفة ، والفلَك والحيوانِ ، فقد صِرت لها محبًّا ، بل عاشِقاً ، فأمْهِلْنى بِضعَ سنين .

وأعجَبتْ أبو القاسم رجاحةَ عقلِ ولدِه ، وعدم تعجُّله

فى طلَبِ المناصِب ، وطريقتُه المنطقيةُ المنّظمةُ الهادئةُ فى التفكِير ، فعانقَه قائِلا :

— الآنَ ستَقرّ بكَ عينُ جدّك فى ثَراه . لقد ودّع جُدك الدنْيا فى العامِ الذى وُلِدْتَ أنتَ فيه ، فغمرَني الحزنُ عليه ، ولم يعوِّضنى عنه سوَى أنكَ وُلِدتَ إثر وَفاتِه بشهُور ، وسوَى أن سلطان المرابِطين « ابن تاشفين » ، رفعَنى من قاضِى مدينة ، لأكونَ قاضِيَ الجماعة (قاضِيَ القُضاة) ، فى مكانِ جدّك . فاصنعَ يابُنَىّ ماتُحِبّ . وإنى لأرجُو أن تكونَ أفضَلَ إخوتك عقلاً وعِلما . لكن دعْنى أفرح بِك أنا وأمّك . وتزوّج بفتاة تُحِبّها ، فتاةٍ نالتْ من التعليمِ مانالتْه إخوتُك من البَنات ، فلا تكُونُ غريبةً بينَ نِساءِ البيْت ، ولاتشعرُ أنت معَها بغربةِ العقْلِ والرّوح ، وتجدُ لديْها خيرَ صدِيقٍ فى الحيَاة ، وخيرَ تفهُّم لانشغالِك عنْها بالعِلم ، وتغرِسَ فى أولادِكما حُبّ العِلم ، مثلَها ومثلَك .

الأيام دول

فى ذِلك العامِ نفسِه ، سقَطَ حُكْمُ المرابطينَ فى المغرِب ، على أيدِى رجالِ دوْلةٍ مغربيةٍ جديدة ، هى دوْلةُ الموحِّدين ، فللدّولِ شيخوخَتُها مِثلما للأفرادِ ، وانتقلتْ تبعيةُ الأندلُسِ للدولةِ الجديدَة ، وكانت ، وهى المهدّدة أبداً بغزوِ الفِرنجة ، بحاجةٍ إلى دِماء دولةٍ فتيّةٍ وليدة . وكانَ مؤسِّسُ هذه الدولة تلميذًا للإمامِ الغزالي المتصوّف ، ومدافعاً عن مذهبِ الأشاعرةِ بينَ مذاهِبِ أهْلِ السّنة .

ولم يؤثّر هذاَ التغيُّر فى حياةِ أحدٍ من بِنى رُشد . ظلّ أبو القاسم فى مكانِه قاضِياً للجماعة ، وظلّ ابنهُ أبُو الوليد يواصِلُ طلبَه للعِلم ، وللطب ، فى كتبِ ابن ماجَه ، وابنِ جُبَيْرُول الفلسفية ، وكتبِ الزهراوِىّ الطبيبِ الجراح ، و« الحاوى » للرازى ، فى الطبّ ، ويُعالج الفقراءِ بلاَ أجْر ، وصارَ له تلاميذٌ ، يدرسُون على يديْه الفلسفةَ والطبّ .

دعوة للقاء السلطان

وتَولَّى منصِب السّلطان « أبو يعقوب يُوسَف » . واختار لهُ وزيراً فيلسُوفاً ، وطبيبا خاصّا : « ابنَ طفيل » أستاذ أبا الوليد . وزارَ ابنُ طفيل صديقَه أبا القاسم فى قُرطبة ، فأهدى لتلميذه أبي الوليد نُسخةً من قِصّتِه الفلسفيةِ « حىّ بن يقظان » . وسعِد أبو الوليد بقراءَةِ القِصّة ، وناقَش ابنَ طُفيْل فى مغزاها الفلسفِىّ ، الذى يَرى فيهِ ابنَ طُفيل ، أنّ الإنسانَ يمكِنُ أن يهتدِىَ إلى خالِقِ للكون ، لو قُدّر له أن يعيشَ وحيداً عن بِنى جنسِه ، ولو لم يبلُغْه أىُّ خبرٍ عن الوحْىِ والرسُل .

وأعجب ابن طفيل ، بمعارِفِ أبِى الوليد الواسِعةِ بآراءِ الفلاسِفةِ الإغريق ، وفلاسِفةِ الإسلامِ المشرقِيِّين ، وبنقدِه الجيّدِ لأولئِك وهؤلاء ، وأغراه بالسّفرِ معَه إلى مراكِش ليقدّمه إلى السلطان أبِى يعقوب ، ويقدّم له المشورَة فى إنشاء عَددٍ من المدارِس الجديدةِ والحديثَة ، بالمغرِب والأندلس ، على أُسُسٍ جديدةٍ ، لإصلاحِ نُظُمِ التعليم .



وكان أبُو القاسم قد قامَ بتقديمِ مشورَة مماثِلةٍ لإصلاح التعليم فى عهدِ دولةِ المرابِطين ، فسُرّ أبُو الوليد بدعوتِه للقيامِ بدورٍ مماثِلٍ لدورِ أبيه ، فى دوْلةِ الموحدين ، وقبْلَ رحيله عن قُرطبة إلى مراكش ، كان قد حَمل معه آراء كثيرة جديدةً لإصْلاحِ التعليم ، ونظُمِ التعليمِ وطرائِقه ، وفى مقدمِتها آراءُ أبِيه .

تعليم المرأة

كان قصرُ السلطان فى مراكش مثَل قصورِ الأندلس ، فالعِمارةُ هنا وهنَاك واحدة ، تميزُها أبداً القاعَاتُ والنوافير المثمنةُ الأضلاع ، والعقُود والمقرْنصَات الزُّخرفية المورَّقة . وكان الوقتْ صيفاً حين جلَس أبو الوليد فى مجلِس السلطان مع صفوَةٍ من علماءِ وأدباءِ وشعراءِ المغربِ والأندلسِ ، وأنِست نفسُه لهَذا السلطان المحبّ للعلم وأهلِه ، وحدّث نفسَه بأنّه هكذا ينبغى أن يكونَ الحاكمُ عالماً ، يجمَع حولَه العلماء ، ويتَّخِذ منهم الوزراءَ والمشِيرين .

وتحدّث أبُو الوليد ، مع من تحدث من الحاضربن ، فى قضيِّةِ إصْلاحِ االتعلِيم . وراقت للسُّلطان وَجهةُ نظرِ ابنِ رُشْد ، وتركيزِه ، وحُسْنُ فهمِهِ وعرضِه ، وقدرتِه على إقامةِ الجسورِ بين الآراءِ المتعارضة ، ورفْعِ التناقُضِ بينِ الأفكارِ المتبايِنَة ، فقال له :

ــ مارأيُك فى تعليمِ المرأةِ يأبا الوليد ؟ وهل إذا تعلّمت

المرأة ، ونالتْ قدراً كافيا من التعليمِ ، تكونُ صالحةً لتولّى المنَاصِب ؟

فقال ابنُ رشد ، وهو يدقّق فى اختيارِ كلماتِه ، قدْرَ المستطَاع :

ــ لفيلسُوف اليونانِ « أفلاطون » رأى فى هذا الموضُوع فى كتابِه « الجمهورية » .

فقال له السّلطان باسماً ، وقد أدرَك حَرجَ موقِفَ أبِى الوليد ، فى إبداءِ رأيهِ الخاصّ :

ــ نريدُ رأيَك أنتَ يأبَا الوليد ، لا رأىَ أفلاطون .

فقال ابنُ رُشد :

ــ رأيى أنّ النساءَ مادُمن من أفرَادِ الجنسِ البشرِى ، فهن يشتركْنَ بالضرورةِ فى تحقيقِ غايَةِ الإنسان ، وهى تعميرُ الأرض ، والارتقاءُ بالحياةِ البشرية . ولن تختِلفَ النسّاءُ عن الرجَالِ فى تحقِيقِ هذِه الغاية ، إلا من حيثُ الدرجةِ الأكثر أو الأقل ، مثلَما تختلفُ بين الرّجال . وإذا توجّهت الطبيعة

فى المرأة ، إلى نشاطِ الرجلِ ، فى المدينةِ الواحدةِ ، فسوفَ تمارِسُ نفسَ النشاطِ الذى يمارِسُه الرجل .

حدثتْ همهمَة فى المجلس . فسارعَ ابن رشد بتوضيح وَجْهةِ نظرِه . قال :

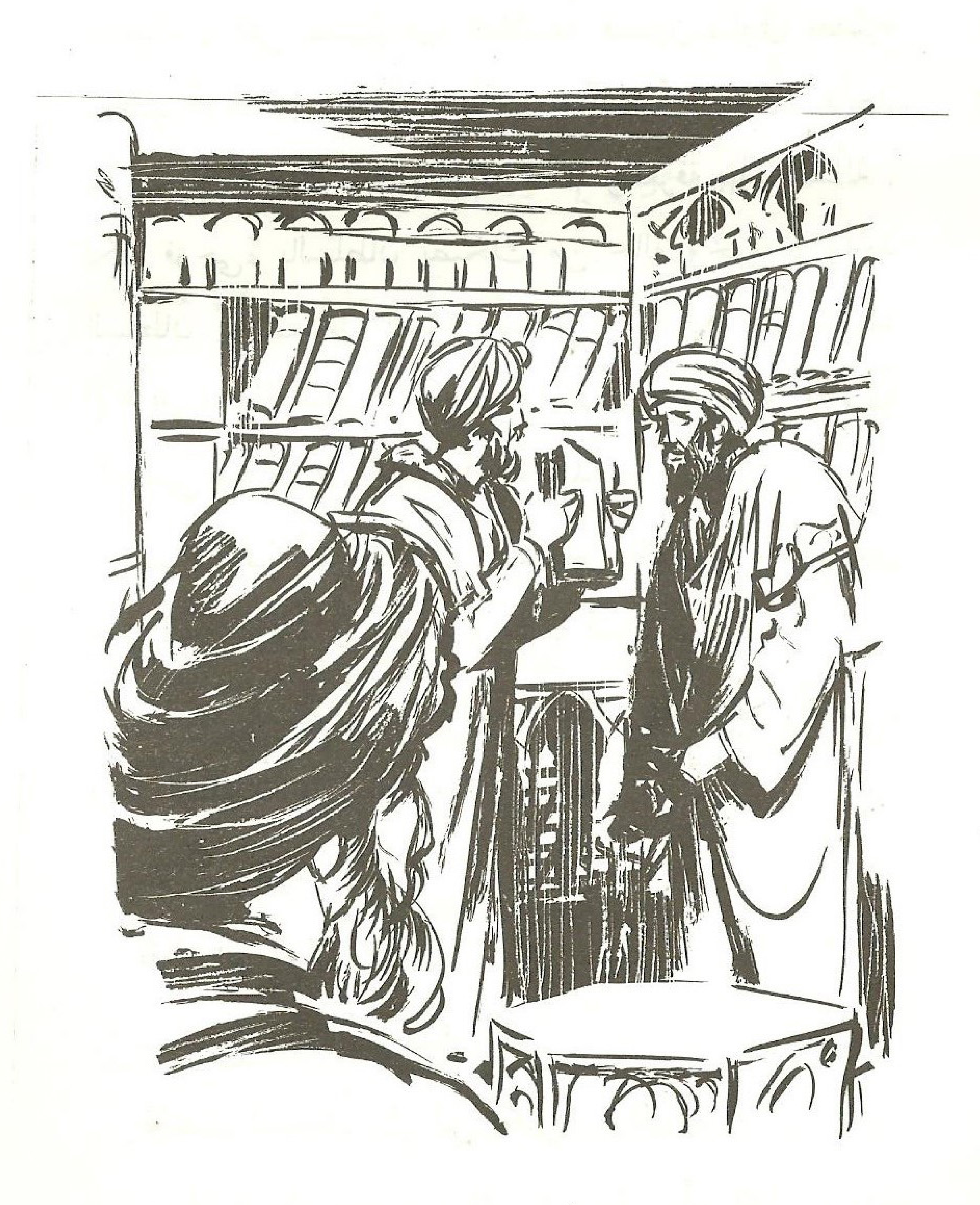
ـــ إن بعضَ النساء يتلقَّيْن تعليماً ممتازاً ، ويتمتعْن باستعدادٍ حميد ، فليسَ من المحال أن يكونَ من بينهِن فلاسِفة ، مثلما حدَث فى الاسكندريةِ واليونان ، وفقيهات مثلما حَدث فى دُولٍ للإسلام ، وحُكّام وقُضاة مثلما يحْدُث بينَ الرجال ، فى أىِّ مدينة . لكنّ كفاءَةَ النّساء فى مُدُنِ الأرضِ غير مَعروفَةٍ إلى الآن ، ولم يكتَشِفْها ويستثمِرْها أحد لِصالح المجتمعَ .

فهن يوضَعن فى خِدمةِ أزْواجهن ، ولغايةِ النسل ، ويوقفن فى البيُوتِ على إنجابِ الأطفالِ ، وتربيتِهم ، وإرْضاعِهم . وفى رأيِى أنّ النساء لم يُعدَدْن حتّى الآن لأىٍّ من الفضائلِ الإنسانيةّ التى نحرصُ على أن نُعِدّ لها الرجال . ولذلك فالنسَاء كثيراً مايُشبهن فى حياتِهن النبّاتات ، حتى صِرْن عبئاً على الرجال ، وأحدَ أسبابِ الفقرِ فى مُدُن الأرْضِ ، لأنّهن قُدْرات

عملٍ معطلّة ، خاصةً وأن عَددهن ، فى بعضِ المدن المحارِبة ، ضِعْف عددِ الرّجال ، ولايفهمْن بحكمِ تربيتِهنّ من الأعمالِ اللازِمة فى المُدن ، سوى فنّ الغَزْل والنسْج . وهُنّ لايَقُمْن بِهما ، فى مُعظمِ الأحْوال ، إلا لتعويضِ حاجتِهن للمال ، وقلّةِ قُدرتِهن علَى الإنفاق .

وساد الصمتُ والوجُوم فى المجلِس ، لجُرأةِ أبِى الوليد فى الحدِيث عن حالِ المرأة فى الدّنيا ، وتسويتِهِ لها بالرّجال ، مع أنّ أكثَر الحاضِرين ، كان حريصاً على تعليمِ بناتِه ، ولو فِى البيوت ، وحريصاً على تأمينهن اقتصادِيّا ، ويتمنّى أن تكون بناتُه قادِراتٌ علَى العَملِ مِثل الرّجَال فى مدائِنِ الإسْلام ، ولكنّه يخشَى ماحوْلَه من الأعْرافِ العامّة ، فى عالَمٍ يسُود فِيه الرجَال . وأدرَك السلطانُ حَرَجَ الموقِف ، وخَشِىَ تطورَ الجدَلِ بين الحاضِرين ، وبينهم فقهاءُ غزاليّون وأشاعِرة ، فقال :

ـــ آراءٌ ومُنًى ياأبَا الوليد . والإسلامُ لايحُول بيَن المرأةِ وماتقوله . فدعْنا لانسبِق زمانَنا ، ولنأمل أن تتطَور المجتمعاتُ وتتغير أحوالُ الناس .



السلطان والعالم

انفضّ المجلس ، وخَلاَ السلطان بابنِ طفيل ، وأبى الوليد ، فصحِبهما معَه إلى مكتبتِه العامرِة بالكتب فى كل فنٍّ وعلم ، من علومِ الدّنيا والدّين ، فقد أخذتْ تهبُّ على الحديقة ، مع انتصافِ الليل ، نسْماتٌ بارِدة .

ورمَق السلطانُ أبَا الوليد ، وقال لَهُ متودِّدا :

ــ قرأتُ موسوعتَى جدّك الرائعتيْن فى الفقه ، وأرجُو أن تكونَ مثلَه يوماً ، قاضِيا للجماعَةِ ، بعد عمرٍ طويلٍ لأبِيك .

وحدّث ابنُ طفيلٍ السلطانَ عن العُلومِ التى درسَها أبُو الوليد فى قُرْطُبة ، وتبحّر فيها ، وأن بيْن هذِه العلوم علمْين يُحبّهما ، مثلما يحبّهما السلطان ، هُما : الفلسفةُ والطب .

وومضَت عينَا السّلطانِ بإعجاب ، وقالَ لأبى الوليد :

ــ خبّرنى إذنْ عن رأىِ الفلاسفةِ فى الموجودات : أقديمةٌ هى أمْ حادِثة ؟ وفزِع أبُو الوليد ، وخشَى أنْ يُبدِىَ آراءَ الفلاسِفَةِ ، أو آراءه فى هذِه القضيّة العقليّة التجريدِيّة

الشائكة ، التى ينقسِمُ فيها الفلاسفةُ قسمين ، وفى حضْرة سلطانٍ مُوحِّدى ، مالِكّى المذهب ، أشعرىِّ الجدل ، فأخذَ يتهرّب من الاجابةِ ، بإظهارِ قِلّة العلمِ والمعرفةِ بهذِه المسْألة .

لكنه فوجىءَ بالسّلطان يضحَك من حالِه وخوْفِه ، وأخَذ السلطانُ يُجيبُ على السّؤال بنفسِه ، ويذكُر آراءَ فلاسِفَةِ الإغِريق ، والمسلِمين ، واحداً واحِداً ، واحتِجاج فلاسَفَةِ المسلمينِ وبراهينهم . فقال أبو الوليد :

ــ لا أظنّ أن أحداً من المشتغِلين بالفلسفة ، المتفرّغين لها ، لديْه غزارةٌ فى المعرفة ، مثلَما لديك .

وباسَط السلطانُ أبَا الوليد ، فتكلّم بما يعرِفُه وأفَاض ، وسُرَّ السُّلطانُ بما سمِعه منه ، فسأله :

ــ كم عُمرك الآن ؟

فقال أبو الوليد :

ــ تسعٌ وعِشرُون سنة .

فالتفتَ السلطانُ إلى ابنِ طفيل ، وقالَ له :

ــ إذا صدَق حْدسِى ، فلسَوف يكونُ أبو الوليد ، رابعَ

فلاسِفَةِ المسلمينَ العِظام ، بعدَ : الكِندى ، والفارَابى ، وابنِ سينا ، ومن حظّ المغرِب والأندلُس ، أن يكونَ فيها عقلٌ منظم ، ونَفّاذٌ لجوهرِ الأمور ، مثلَ عقلِ أبي الوليد .

وأطرق أبو الوليد خجِلاً من الثّناءِ عليه ، وعادَ السلطانُ يقولُ لأبي الوليد:

ــ من الآن . سيكونُ لقبكُ عِندِى هو : ابنُ رُشد .

وضحِك ، وأضَاف :

ــ ابنِ رُشد الجدُّ القاضِى الفقيه ، وابنُ رشدِ الأبُ القاضِى الفقِيه ، وابنُ رشدِ الحفيدُ الفيلسَوفُ الطّبيب .

قضية عمر

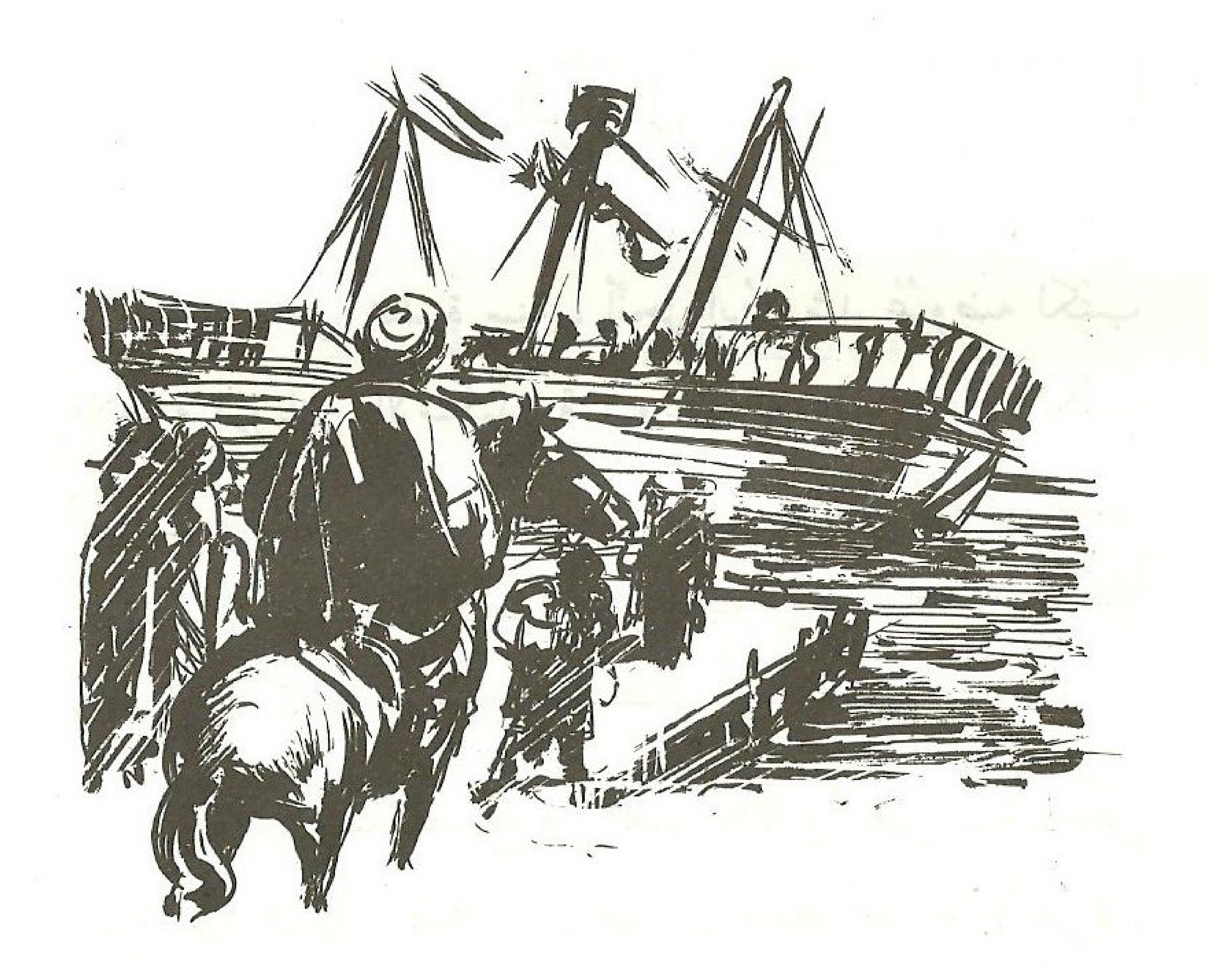
مكَث ابنُ رشدِ الحفيد فى مراكش ، بضْعة أسابيع ، ضيفاً مكرّما على السُّلطان ، يتوّدد إليهِ الوُزَراء ، ويقدرُه العلماء ، ويخشَى براهِينَه الفقهاء المتزمتون .

وزارَه أستاذُه « ابنِ طفيل » ، ذاتَ ليلة ، فى جناحهِ بقصرِ السّلطان ، قُبيلَ رحِيله ، وقال له :

ـــ إنّ السّلطان يشكُو من قلَق عِباراتِ المترجمين لمؤلفاتِ فلاسِفةِ الاغرِيق ، وغموضِ شروحِها . وهو يأمَل أن يقرّب أحدُ فهمَها لهُ وللناس ، بعبارَاتٍ واضِحةٍ ، وتراكيبَ مُبسّطة ، وظنى أنّك أقدرُ منّى على تحقيقِ هذهِ الغاية ، فأنتَ جيّدُ الذّهْن ، صافِى القرِيحة ، واضح العبارة ، نُزوعُك قوىّ للفلسفة . وانشغالِى الدائم بصحبةِ السلطان ، يجول بينِي وبينَ هذهِ الغايةِ الجلِيلة .

وقبِل ابن رشد الحفيدَ المُهمة ، فقدْ كانَ عازِما على معايشةِ الفلسَفةِ الإغريقية والإسلامية من جدِيد ، بعقله هو ، عارضًا لها ، ومعلّقا عليها لاشارحا لها ، وبالبراهِين اليقِينية ، وليسَ بالبراهينِ الجدليّة مثل علماءِ الكلام ، ولا بالبراهِينِ الخطابية ، مثل الفقهاءِ والوعّاظ ، والكتّابِ والشعَراء .

وقَبْل عَودةِ ابنِ رُشد إلى قُرطبةَ الحبِيبة ، ودّعه السّلطان وابنُ طفيل فى الصّباح . وزوّده السلطانُ أبُو يعقوب بمالٍ ،



ومنَحه خِلعًا (ثيابا) سُلطانيّة ، وجواداً عربياً أصِيلا من جِيادِ« حضرَ موت » وأجرى عليه راتِبا سنويًّا لاينقطِع . وصحِبه الفرسانُ من مراكش إلى شاطِىء البحرِ ، فركِبَ سفينةً تعبرُ به مضيق طارقٍ مع جوادِه ، إلى مرسَى السفنِ بالجزيرةِ الخضراء ، فى جنوبِى الأندلس .

الزلزال

خلالَ خمس عشرةَ سنة ، أنْجز ابنُ رشد عُرُوضه لكتُب فلاسفَة اليونانِ والاسكندرية ، وتعليقاتِه عليها ، بل ولكتُبِ أطبائِهم وعلماءِ الفلك والحيَوانِ ، فى جوامعَ عُرِفت باسمِ جوامعِ أرسطو ، وأفلاطُون ، وجالِينوس .. وأهداها واحداً واحداً فى كُتبٍ ورسائِلَ للسلطانِ أبِى يعقُوب .

وكانَ ابن رُشد قد بَلغ من العمرِ ثلاثاً وأربعِينَ سنة ، حينَ ودَّع أبُوه الدّنيا ، قائلاً له ، قبل أن يلفِظ أنفاسِه الأخيرَة .

ـــ حانَ الوقتُ لتكونَ قاضِياً ياأبا الوليد ، وحانَ الوقتُ لتؤلّف كتَبك أنتَ ، وتحرّر نفسَك من أسْرِ قدمَاءِ الفلاسِفةِ اليونانيّين والمشرقيين . باركَ الله فيكَ يابُنى لأهلك ، ولأُمّتك .

فى تِلك الليلةِ ، انقطَع أبُو الوليد عن الدّرسِ والتأليف ، وكانتْ هذه الليلة هى الليلةُ الثانية فى حياتِه التى ينقطِع فيها عن القراءةِ والكتابة ، بعدِ ليلةِ زفَافِه . إلى زوجتهِ الرقيقةِ الحبيبة .

وأوعزَ « ابنُ طفيل » للسلطانِ أبى يعقوب ، فعيِّن ابنَ رشدٍ قاضِيا لأشبيلية ، قبْلَ أن يمّر عام على وفَاةِ أبيه . وغادرَ ابنُ رُشدٍ مع زوجتِه وبنِيه الخمسةِ قُرطبةَ إلى أشبيلية . ولم يكدْ يستقّر به وبأهلِه المقَام فى أشبيلية ، حتى حدث زلزال كبير بقُرطبة ، كُتبتْ لهُ ولأهلِه النجاةُ من أضرارِه ، وآثارِه المدمِّرة .

مدينة الفنون

طابت الحياةُ لابنِ رشدٍ فى اشبيلية ، علَى حنينِه الدائِم لقُرطبة ، أمِّ المدائن (عاصمةِ الدّنيا فى رأيه . ووعى أن لكلِّ مدنيةٍ طابعَها الخَاصّ ، وروحَها الخلاق المتميز ، المتجسّد فى عمرانِها وأهلِها . فبقدْرِ ماكانتْ قُرطبة مدينةً للفلسفةِ والعُلوم ، وللكتُبِ وللثقافة ، كانتْ اشبيليةُ مدينةً للمسرّات الروحِيّة الأخرى ، مدينةً للفنّ وللفنـانِين ، للأزيـاءِ والزّخارف ، والموسِيقَى والغِناء ، حتى أنّ أهلَ الأندلِس كانُوا يقولُون : « إذا ماتَ عالمٍ باشبيلية بِيعتْ كتبهُ فى قُرطبة .

وإذا ماتَ مُغنٍّ بقُرطبة بيعتْ آلاتهُ الموسِيقية فى اشبيلية » ، ضماناً لحُسْنِ التقديرِ لها ، والعدلِ فى ثمنِها ، هنَا أو هُناك .

وظلّ ابُن رشد يتنقّل فى فترةِ إقامِته باشبيليةَ ، بينَها وبيَن مراكش ، يواصلُ عملَه الفلسفِىّ ليلَ نهَار ، حتّى أتمّ إنجازَ مشرُوعه الفلسفِى الهائِل ، وختمه بكتاب فى الفِقه ، هو : « المقدمات » ومع ذلك ، بدا غير راضٍ عن نفسِه ، أمام نَفسِه ، بعدَ كل ما كتبه من كتب ، فقد كانَ يُبحِر فى بحارَ أبحَرَ فيها غيرُه من قبلِه ، على حدّة تعليقاتِه ، وحُسن حسمِه للآراء الخِلافية ، بالعقلِ الباحثِ عن وجهِ الحقّ وحدَه .

لقاء مع الشباب

ووفد عَليه فى اشبيلِيّة عددٌ من شبابِ قرطبة ، يستنيرُون بآرائِه فى قَضَايا الفكرِ الفلسفِىّ والدينىّ ، والعِلمّى . وجلَس وإياهم فى حديقةِ بيتِ القاضِى باشبيلية ، فى ليلةِ ربيعيةٍ مقمرة ؛ تتأرجَحُ حولَهم فى الأشجار ، مع النّسائم ، القنادِيلُ

والمِشْكاوات ، وتفوحُ روائحُ زهُور اشبيليةٍ عِطرة ، تُسْكِرُ الرءُوس ، وتريحُ النُفوس ، وثمّةَ أنغامُ لموشحٍ أندلسّى يُسمَع من بعِيد . وأخذ الشّبابُ يسألُون ابنَ رشد ، ويكتبُون فى الوقْتِ نفسِه أسئلتَهم ، وأجوِبَةَ ابنِ رشد .

وران عليهم الصمت ، وراحُوا يفكّرون فيما يسمعونه من « ابن رشد » ويُدركُونه أنهمُ أمامَ عقْلِ كبير . لايقِلّ تسامُح قلبِه ورحابته ، عن سَعَةِ عقِله . يحتِضن بفكرِه وَحْدةَ كبرى تندرجُ فيها كلّ عقُولِ البشر ، ومعارِفِ الأمم ، وثقافاتِ الشعوب .

توحيد القوانين

كان ابن رشد الحفيد قل بَلغ من العمرِ ثلاثاً وخمسين سنة ، حين أصدَرَ السّلطانُ أمرَه بتعيينه قاضِياً للجماعة ، فعادِ ابنُ رُشدَ بأهلِه إلى دارِ آل رشد بقرطبة ، فُفُتِّحتْ أبوابُها ونوافِذها ، وأُصْلحِ ماتصدّع مِنها فى الزّلزالِ الكبير ، وشذّبت حديقتُها ، وأُجرِيتْ مياهُها ، وأضيئَت الأنْوَار .

وتوجه ابن رشد إلى دار الحكمِ (القضاء) فى قُرطبة ، بالقرب من مسجِدِها الجامِعِ الكبير . وجلسَ يرقبُه قضاةُ محبُّون له ، وقضاةُ كانوا يطمعُون فى منصبه ، بعد وفاةِ قاضِى القضاة الأسبق « ابنِ مغيث » ، وقضاةُ حاسِدُونَ له لحُظْوته عندَ السلطان ، وقُضاةٌ ناقِمون عليهِ لصلتِه بالفلْسفة ، ولحبّه لكلّ الناس ، وتسامُحِه ، مثَل جده ، مع غيرِ المسلمين .

وقالَ ابنُ رشد ، فيما قالَه ، بإيجازٍ ، مُستَنًّا (مشرِّعا) خطة جديدةٍ للقضَاء :

ـــ غايتُنا معاً كقضاة ، هى تحقيقُ العدل ، دونَ تفريق بينَ أهلِ الأدْيان ، أو بينَ أهلِ الغِنى وأهلِ الفقر ، وأهلِ القوةِ وأهلِ الضعف . وسنبدأ بتوحِيد القوانينِ فى الحكمِ بينِ الناس ، فلا يختلِفُ القضاةُ فى أحكامِهم ، من مدينةٍ إلى مدينة ، ولا من حىّ إلى حىّ .

وأحبّ الناسُ فى الأندلس « ابنَ رشد » لعدْله ، حبّهم لجدّه ، ولأبيه من قبْله ، وشعَرُوا بهذا العدلِ لدى كلّ قضاةِ الأندلس فى الأحياءِ والمدُن ، والضواحِى والقرى ، والجبالِ

والوديَان . وهابَ القضاةَ والقضاءَ ، الأمراءُ ، والقُوّادُ ، والأعيانُ والأغَنياء .

ووجَد ابنُ رشد وقتاً ليواصلَ عملَه الفكرِى . فعملهُ فى القضَاءِ مقصورٌ على الأقضيةِ التى تُحال إليه من قُضاةِ المُدن والقرى والأحياء ، والأقضيةِ التى يتظلّم فيها الرّعايا من ذِوى السلطان ، والأقْضيةِ التى يعترِض فيها المتخاصِمُون على أحكامِ هؤلاءِ القُضاة ، وكانتْ له ولقُضاته شُرْطتُهم الخاصة لتنفيذِ الأحْكام دونَ إبْطاء .

احذر لنفسك

وفوجِىء ابنُ رشد بالسلطانِ يُضِيف إلى منصبِه منصباً آخر ، هو منِصبُ الطبيب الأولُ الخاصّ بالسلطان . وخفّف عنْه مسئولياتُ هذا المنصب ، أنه سيبَقى فى قرطبَة الحبيبة ، لا يُغادِرها إلى مراكش ، إلا بدعْوَةٍ من السلطان ، لعلاجِه ، أو علاجِ أحدِ من أهلِ قصرهِ . وشعرَ ابنُ رشد بالامتنانِ



لأستاذِه « ابن طفيل » الذى يذكرُه أبداً بالخيرِ عندَ السلطان .

ومرّ عامان ، ودُعِى ابنُ رشد لعلاجِ أستاذِه ابنِ طفيل . وقالَ له ابنُ طفيل حين رَآه :

ــ مرحباً بأعزّ الناسِ . ماأحببْت بدعوتِك ، إلا رؤْيتَك ، فالمرضُ عُضَال ، لاعِلاج له إلا براحَةِ الأبد .

وقالَ له ابنُ طُفيْل :

ــ احذَر لنفسِك ياأبا الوليد . أعرِفُ أنك لستَ لذوِى السلطانِ بندِيم ، ولا بسميرٍ ، وأنك ترفَعُ الكَلَفة فى مخاطبتِهم ، وتخاطبهم كإخوةٍ وأنداد . وفى ذلِك خطر . وأعرف أنكَ صاحبُ عقل ، يغارُ منه قضاةٌ وفُقهاء ، ولا يرضَى عن طلبِه للحق ، والحقّ وحده قضاةٌ وفقهاء . وفى ذلك خطر أيضا.ولذلك أحببتُ أن أراك لتسمع منى ماقلته لك .

وفى الصّباح ، ودّع ابنُ طُفَيْل ، وحيداً ، أنوارَ الدّنيا ، وظلامَها ، و أشياءَها ، ووجُوهَ الأحبابِ والأعداء . وحزِن ابنُ رشُد مع السّلطان لفراق ابنِ طُفيْل . وزادَتِ الأحزانُ

على ابن طفيل فى مرضِ السلطان ، فبقِى ابنُ رشد بجانِبه شُهُورا يُداوِيه ، ولايُفلح فيهِ علاج ، حتّى فارقَ الدنيا ، ودُفِنَ بجانبِ صديقهِ « ابنِ طُفَيْلٍ » ، كما أراد . وبايَع ابنُ رشد ، مع الناس ، السُّلطانَ الجديد : « أبو يوسَف يعقوب » ، وودّعه هو وأخاه « يحيى أبى يعقوب » ، عائداً لمنصِبه فى قرطبة ، كقاض للقضاة .

الكليات والجزئيات

زار « ابن زُهْر » صديقه ابن رشد عالم الطب فى بيتهِ ، وكان ابنُ زهر قد أصبحَ أشْهَر طبيبٍ معالجٍ فى الأندلُس بأسرِها . واتّفَق الصديقانِ الطبيبان ، على تصنيفِ كتابيْن خطيريْن فى الطّب . هما : « الكليّات » ، وحَمَل مسئولية تأليفه ابنُ رشد ، و« الجُزْئيات » وحمل مسئولية تأليفه ابنُ زُهر . واستغرقَ هذا الجهْد من الصديقيْن بضعةَ أعوام . وحينَ التقيا فى حديقَةِ قصرِ ابنِ رشد ، كان معَ كلٍّ منهما كتابه الضخْم فى الطبّ . وبدَا أحدُهما للآخرِ سعيداً بما أنجزه



صاحبُه . لكن ابنَ رُشد سَرعَان ماشَرَدَ مع خواطِره ، حتى سمَعه ابن زهر ، يقول :

ــ وماذَا بعْد ؟

فسألَه ابن زهر عن مقصده . فقال له ابنُ رشد ، وهو يتنهّد :

ــ إنما كنتُ أحّدث نفسِى . ويبدُو لى أنّنى مُقْبِلٌ على أمْرٍ عظِيم ، لافِرارِ لى منه ، ورُبما لانَجاة .

وعبثاً حاوَلَ ابنُ زُهر أن يحمِلَ صاحِبَه ، على البَوْح بما يفكِّرُ فيه من الأمْرِ العظيمِ ، فقد كانَ ابنُ رشد يخْشَى أن يُثَبِّطَ أحدٌ هِمّتَه ، وقد بلَغ الثانيةَ والستّين من عمره ، ويعرفُ أنّ الموتَ بالسّيف ، والموتَ على الفِراش ، يستويانِ فى نهايةِ الأمر . وأنّه من الخيرِ له وللدّنيا ، أن يُقدِم على ماعزَم عليْه بشجاعةٍ ، ويحتسِبَ مصيرَه عندَ الله ، والتاريخ .

فى تلك الليلة ، وإذ غادَره ابنُ زُهر ، دخلَ ابنُ رشد مكتبتَه الخاصة ، وجمعَ من رفوفها المنظمة كُتبا عن مسائلِ الشرْعِ الاجتهادية ، وكتباً عن اختلافِ الصحابة والفقهاء ، وكتابين للإمام الغزالى هما : « تهافت الفلاسفة » ، و« فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » . كانت الرغبة جارفةً فى عقْل ابنِ رُشد وروحه ، للحِوَارِ مع الفقهاءِ عامةً ، والغزالِى خاصّة ، وهو يعلم أن الغزالى أشعرىّ المذهب ، خطابىّ البراهين حينا ، جدليّها حيناً آخر ، باطنىٌّ فى طلبِ المعرفة ، وأنّه صارَ مقدّساً لدَى العامة ، والمتزمتِّين من الفقهاءِ ، ممن يُؤثِرون راحَةَ العَقْل ، بل وربما الجهْلَ والتسليمَ بما يُقال ، كلِّ مايُقال .

بداية المحنة

ومنذُ تلك الليلة ، ولسنواتٍ عشر تاليةٍ من عمره ، قلّت زياراتُ ابنِ رُشد لأصحابه ، وزياراتُ أصحابِه له ، بعدَ ساعاتِ عمله فى دار الحُكم ، متعلّلا بشتّى الأسْباب ، قابِعاً فى مكتبتِه معَ المراجع والكتب ، والأقْلام والأورَاق ، فى ضوءِ النهار عبرَ نوافِذ الزّجاج ، وفى ضوءِ المِشْكاوات فى ظلامِ الليل . وإذ شعرَ أنه قد أنجزَ مهمتَه ، وتوّجَ عمرَه بخوْض معركتِه الفكرية فى جبهتيْن : جبهةُ الفلسفةِ من جهة ، وجبهةُ الفقهِ الدّينى من جهةٍ أخرى ، سارعَ بزيارةِ الورّاق الناشرِ لكتبه .

ووضعَ ابنُ رشدِ بين يديْه أربعةَ كُتُب دفعةً واحِدة ، أولُها هو « تهافت التهافت » ، وهو فى الفلسفة ، والأخرى هى : « الكشْف عن مناهجِ الأدلّة فى عقائد الملة » ، وهو فى تفسيرِ نصوص قرآنية ، و« فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة (الفلسفة) من الاتصال » ، وهو فى علم الكلام ، و« بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو فى الفقه الإسلامى .

ونسخَ النسّاخون كُتبَ ابنِ رشد ، وأقبلَ على قراءتِها طُلاّبُ العِلم فى أرجاءِ المدائِنِ الأندلُسية . وأحدثتْ هذه الكتب غيظاً مكتوماً فى نفوسِ المتزمتين بالأندلُس والمغرِب ، وباتَ خصومُ ابنُ رشد من الفُقهاء يتحينَون الفُرصَ للإيقاع به عندَ السّلطان ، وباتَ القضاةُ الحاسِدُون له ، والقضاةُ الطامِعون فى منصبه ، يَرْصُدون الوقتَ المناسِبَ لإعلانِ الحرب عليه . وكانتِ الفِتْنة غافِية تحتَ الرماد ، تنتظِرُ هبّة رِيح .

زيارة عابرة

ووفَدَ السّلطان « أبُو يوسف يعقوب » إلَى قرطبة ، إثْرَ انتصارِه على جيوشِ ألفُونسو التاسِع فى الشّمال . وقد تردّدتِ الإشَاعاتُ فى قُرطبة ، عن غضَبِ السّلطان على ابنِ رشد ، لأنهُ يرفَع الكلَفة بينهَ وبينه مخاطِبا إيّاه بقولِه : « ياأخِى » ، ولأنهُ يتآمَرُ مع أخيه « يحيى » ، ولم يكُنْ ذلِك صحِيحا ، على السّلطانِ لعزْلِه ، وتوليةِ أخِيه .

وبلغتِ الإشاعاتُ سمْع السّلطان ، لكنهُ لم يبالِ بها ، فقد قرأ كُتُبَ ابنِ رُشد ، ولم يغضِبْه ماكتبَه ابنُ رشد ، فهو لم يمسَّ شرْعا ، ولانصًّا ، وإنمّا حاوَرَ اجتهادِاتٍ ، وآراءٍ . وهو على ثِقَة من أخِيه ، وعلى يقينٍ من أنّ ابنَ رُشدٍ لا يلعَبُ لعبة السِّياسَة . وفشِلَ خصُومُ ابنِ رشد فيما أرادُوه . لكنّ السلطانَ كانَ ، فى داخِله ، غيرَ راضٍ عن جُرْأةِ ابنِ رشد ، لاستثارتِه للعَامّة ، والفُقَهاء .

خيانة تلميذ

كان ابنُ رُشد جالساً وحَده ، وقد تباعَدَ عنه ، خوفاً من خُصُومه ، أصدقاءٌ له وطُلاّب ، وبينَهم كان تَلميذٌ له ، عاونَه فى تعيينِه كاتباً بدارِ الحُكم ، ثم قاضياً بينَ القضاةِ ، هو : « أبُو محمد عبدِ الكبير » ، الذى تزعّم جَبْهةَ خُصُومِ ابنِ رشد . وفوجِىءَ ابن رُشد بقدُوم صديقه « ابنِ زهر » عليه ، وجلوسِه إليه ، مُثْنِيا علَى ماكتَبَه ، مهنّئا لهُ بالنّجاة من حْملةِ الإشاعَات . وقال لهُ ابنُ رُشْد :

— مامرّ جوْلة ، والجولَةُ التالية ، لايعلمُ أحدٌ سِوَى الله متى تكُون ؟ أوِ كيفَ تنتهى ؟ لكننّى لستُ بآسَفٍ على شىءٍ ، فما أردْت إلا قَوْل الحق ، لوجْهِ الحقّ ، ومصلحةِ الأمة .

محاكمة ابن رشد

وعادَ السّلطان أبو يوسُف إلى قرطبة مرة أخرى بعد عَامين ، ليُعِدّ العُدّة ، ويجُيّش الجُيوش لمعركَةٍ فاصِلةٍ ، مع ألفونسو التاسع ، فى موقعة « الأرك » . وانتهزَ الفُقهاء فُرصة حاجةِ السلطانِ إليهم للدعوةِ للجِهاد ، وحثِّ الناسِ على الخروجِ للقِتال ، والتبرّع بالأموال ، فجعلُوا بينَهم وبينَ أنفِسهم ثمناً لذلك : « رأس ابن رشد » . ودبّر لهم الخطةُ ، فى تمثيليةٍ مُحكمة ، أمامَ السلطان : « أبو محمد عبد الكبير » ، ولم تكُنْ من مشاهدِها وفصولِها ، كُتُب ابنِ رشد الأربعَةِ الأخِيرة .

قدّمُوا له ، وابنُ رشدِ فى المجلِس حاضِر ، ورقةً من كتابه

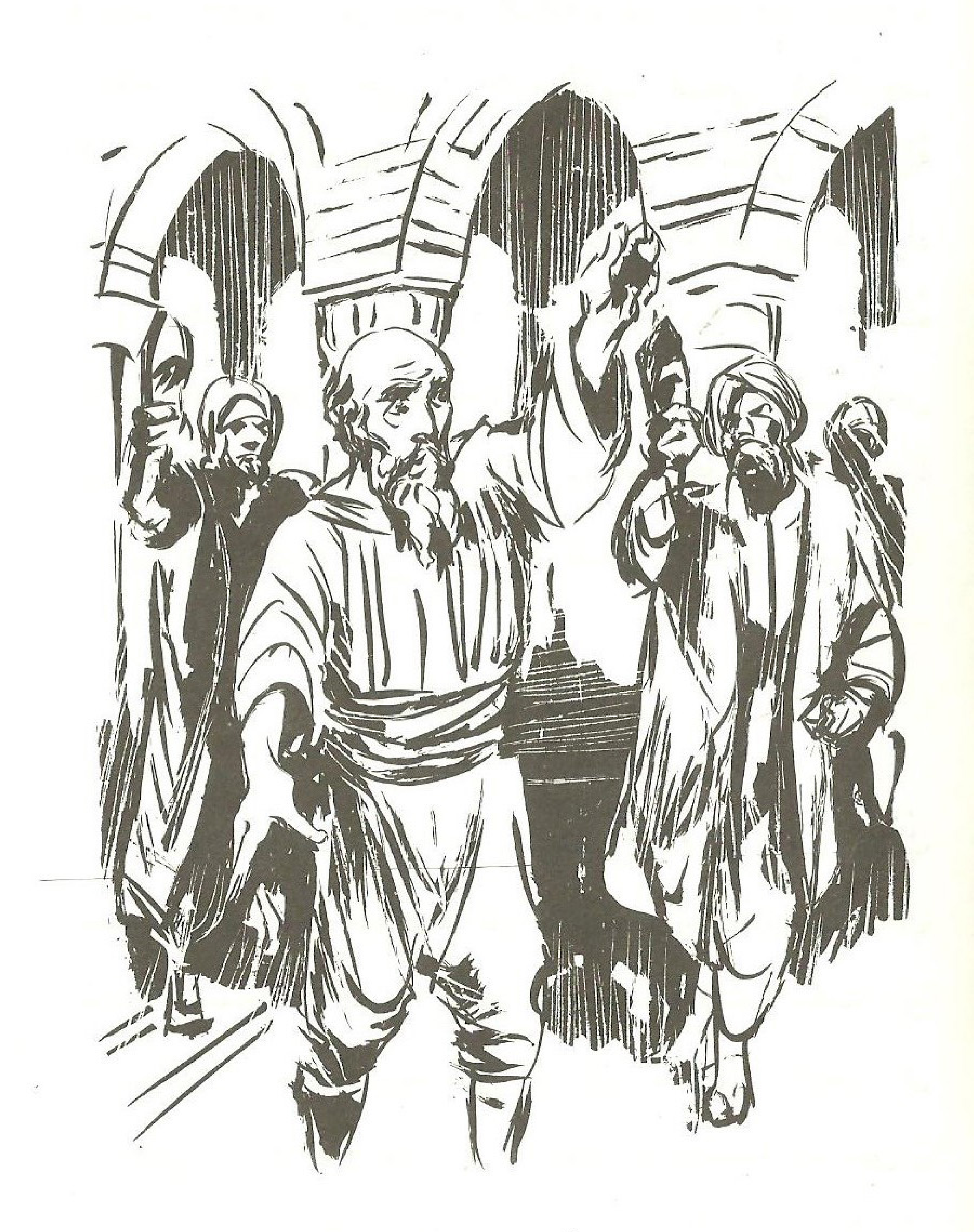
« الحيوان » ، زعمُوا أنهّا بخطّه ، مكتوبٌ فيها عن السّلطان ، أنهُ « ملِك البربر » وقد شهِد عليها مائةُ شاهِد . وأكّد ابنُ رشد أنها ليستْ بخطّه ، وقدم هو ورقةً أخرى بخطّه ، من كِتابه هذا ، مذكور فيها : « مِلك البرّين » .

وقالُوا عنْه إنه قالَ فى كتابِه « الكُلّيات » : « من اشتغَلَ بعلمِ التشريح ازداد إيماناً بالله » . فلمْ يُنكر ابنُ رشد ماقالُوه ، وأكّدَ ماكتبه ودافعَ عنه ، فمعرِفة تكوينِ الكائنات يَزيدُ الإيمانَ ويُثبّته .

وقالُوا عنه إنه كتبَ فى أحدِ كتبِه ، أنّ « الزهرَة إحدَى الآلهة » ، فقالَ ابنُ رشد : هكَذا كان يعتقِدُ الأولُون ، وأنه لايعتَقد ذلك ، وإنما حكَى معتقدَاتِ السابقِين .

ورأى السلطانُ التمثيليةَ مضحكةَ الاتهامات ، وأدرَك أنهُ بحاجةٍ للجميعِ فى مواجهتِه للفرنجة فى « الأرْك » ، فالمحنَةُ ليستْ محنةَ ابنَ رشد وحدَه ، وإنما هِى أيضا مِحنةُ للسلطان ، فى موقِفٍ عصِيب .

ورفَع السلطانُ الجلَسة ، ليصدَر حكمَه بعدَ حين . وتوقّع



الفُقهاء الإطاحَةَ برأسِ ابنِ رشد ، على ضعْفِ اتهاماتِهم ، وذهَب « ابنُ رشد » وهو ينتظِرُ الحكم ، للصلاة مع ولده فى المسجد الجامع ، وتوضئا ، ودخلا المسجد ، والماء يقطر من وجههِ ، وساعديْه ، وساقيه . ففوجِىءَ بالرعّاع ، من صبْية المتزمتين ، يطاردُونهما بالنّعال ، متهِمين إياهُما بالنّفاقِ والزّنْدقة ، ويطردونهما من المسجِد .

وأدرَك السلطانُ عندَما بلغه الخبر ، حَرَج الموقِف ، وقِبل شَفاعةَ أعيانِ قُرطبة فى ابنِ رشد ، فأصدَر حكمَه بنفيه ، هو وعددٌ من أصدقائِه وتلاميذِه ، فى « اليسانه » وكانتْ مدينةً صغيرةً ، أكثر سُكانِها من اليَهود .

الحق لايموت

وشعَر الفقهاءُ والقضاةُ الطامِعون ، بالنّصْر ، وإن لم يُطحْ فيهِ برأسِ ابنِ رشد ، وسانَدوُا السلطانَ فى معركةِ « الأرك » الفاصِلة ، هُزِمتْ فيها جيوشُ « الفونسو » هزيمةً ساحِقة

وحّرك خصومُ ابنُ رشد الوعّاظ فى المساجد ضدّه ، والشّعراء ، والوشّاحين ، والزّجالين ، فَهُجِى فى أرجاءِ قُرطبة ، واتهم بأنه يهودِىّ الأصْل ، ومخروفُ العقل ، وتناولهُ الأدبُ الشعبىّ الأندلسِى بقارِصِ الكلام . وكان بَين الشعراء الذين هجوْه الرحّالة : « ابن جُبير » وجمعِ الفقهاءُ مااستطاعُوا جمعَه من كُتُبِ ابن رشد ، وأحرقُوها فى ميادِين قُرطبة واشبيلية ، وقالَ ابنُ رشد لمنَ معه حين بَلغَه الخَبَر :

— الآن أُدرِك أننى انتصرْتُ للحقّ ، والحقُّ لايموت .

السلطان يعتذر

كانت قد مضت على ابن رشد فى « أليسانه » ثلاثُ سنوات ، وكانتِ العاصفَة قد هدأت ، وآن للسلطانِ أن يَقْلِبَ الصفحةَ الأخيرةِ فى محنةِ ابنِ رشد ، فسعَى بنفسِه إلى « أليسانه » وصحِبَه معَه إلى مرّاكش ، حتى لايبقَى فى الأندَلُس بأسْرِها ، واعتذرَ له ، وأعادَ إليه منصبيْه السابقين .

ورضِىَ ابنُ رشد ، وعدّ ما حدَث له أخَفّ مما حّدثته

نفسُه بهِ فى محنتِه . وكان قد بلغَ من العمرِ اثنتينِ وسبعينَ سنة ، وقد اشتدّت عليه أوجَاعُ المفاصل ، من أثرِ حمّى كانَ قد أُصيب بها فى صِباه ، ولم يعالَج منها عِلاجاً كافِيا .

ولم تمضِ عليه ثلاثةُ شهور فى مراكش ، حتى لفِظ أنفاسَه مودّعا الناسَ جميعا ، ليلْقَى وجْه ربه .

وسارَ فى تشييع جنازتِه السلطان ، وعددٌ قلَيل من الأصدقاء ، و« محيى الدين بن عربى » ، وكأنما كان السلطَان على موعِدٍ مع أجله ، بعدَ ابنِ رشد ، مثلما كان أبُوه على موعِدٍ مع ربّه ، بعد ابنِ طفيل ، فقد لفظَ أنفاسَه بعدَ شهرٍ واحد من وفاته .

وسارع الأصدِقاء والتلاميذُ بنقلِ رفاتِ ابنِ رشد من مُراكش ، على ظهرِ بغل ، ليُدفَن ليلاً مع جدّه وأبيه ، فى ثَرى قرطبة ، المدينةِ التى أحبّها ، وكان عقلَها المفكّر ، وقاضِيَها العادل ، وعاشِقَها الأبدى .

وأحْصى الأصدقُاء والتلامِيذُ عددَ الصفحاتِ التى كتبهَا ، فكانتْ عشرةَ آلافِ ورقة ، وعددَ الكتبِ والرسائلِ التى ضمّتها فكانتْ ثمانيةً وخمسين كتاباً .

ولِعّدة قرون ، أحدثتْ مؤلفاتُ ابنِ رشد دوِيّا فى أرجاءِ أوربا ، وعقولِ مفكرِى الأديانِ الثلاثة : « ابنُ ميمون » حَبْرُ اليهود ، و« تُومَا الأكوينى » المفكرُ المسيحى ، و« مارتن لوثَر » داعية البرُوتستانت ، وابنُ تيمية الإمام ، وخُوجة زادَه المؤرخُ التركى ، وآباءُ الكنيسة فى إيطاليا الذين هاجَمُوا الفكرَ الرشدى فى مائتين وتسْعَ عشرة قَضية ، أصدروُا بها قراراً بالإعْدام ، على كلّ من يقرَأُ ابنَ رشد ، أو يكتبُ عنه . وأُعدِم بسَببِ هذا القرارَ الأحمق ، صفْوَةٌ من المفكرّين الإيطاليين فى رُوما .

لكنّ الحقّ الذى لايمُوت انتصرَ فى النهّاية بعدَ ثلاثةِ قرون ، فتخصّص فى فكرِه مستشرقونُ فى ألمانيا ، والنمسا ، وفرنسا ، وهولندا ، وإيطاليا ، وفلورنسه ، وانجلترا ، وأمريكا ، وتركيا ، وعواصِمِ الوطَنِ العَربى .

وجاءتْ أجمل تحيةٍ لابنِ رشد ، بطبعِ أعمالِه فى البندقية فى القرن السادِسِ عشر الميلادى ، فى اثنْى عشَرَ مُجلَّداً ، وتدريسِ كتبه فى جامعاتِ إيطاليا ، وفرنسا . وقد كتبَ العقادُ عنه كتابا ، ومحمودُ قاسم كتاباً آخر نالَ عنه درجة

الدكتوراة من باريس ، وحقّق وطبع عددا من كتبه نشرتها هيئة الكتاب بالقاهرة .

وفى العصر الحديث ، لا يزالُ الاهتمام بالفكْرِ الرشْدِىّ ، المؤثرِ فى الفلسفةِ الإسلامية ، والأوربية على السواء ، قائما ، فما أكْثَر العواصِم التى تتكوّن فيها ، فى القرنِ العشرين « الجمعيات الرشدية » من أساتذَةِ الجامعاتِ ، والأكاديمياتِ العالمية ، فى عدد من عواصمَ الدنيا .

* * *

وفى العامِ الثامِنِ والتسعين ، وفى اليوم العاشرِ من ديسمبر من هذا القرن العشرين ، ستحلّ الذكرى الثمانمائة لوفاة ابنِ رشدِ . ولسْوف يحتِفلُ العالِمُ كلّه بهذهِ الذكرى ، وتنصتُ الدنيا لكلماته القائلة :

« علَى الإنسانِ أن يعمَلَ لإسعادِ المجموع ، فلا يخصُّ شخْصه بالخيرِ والبرّ . علَى المرأةِ أن تقُومَ بخدمةِ المجتمع كما يقومُ الرجل . المصلحةُ العامةُ هى مِقياسُ الأفعالِ من حيثُ الخيرِ والشرّ . الدينُ أحكامُ شرعية وغاياتٌ خلقية ، وليسَ مذاهِبَ نظرية . المجتمعُ الأمثَلُ هو المجتمعُ الذى لاتفرقَةَ فيهِ

بين : « مالي .. ومالِك » ، ولاغُربَة فيه لأحدٍ فى أىِّ بلد ، وتتحققُ فيه الحّرياتُ فى النّظام . الطاغيةُ أسيرُ فئةٍ من الناسِ يملؤهم الجوعُ والخْوف ، وهو نفسُه يعانِى أعظمَ الجوعِ ، فليسَ بمستطاعِه أن يذهَبَ حيثُ شاءَ ، ولا أن ينظرُ حيثُ يريد ، ولايستطيعُ أن يضبِطِ نفسَه فيغْلِبَها . وهو أشَدُّ الناسِ عُبودية ، ولاحيلةَ له لكبْحِ جَماحِ رغباتِه ، فهُوَ فى حُزْنٍ وهمٍّ دائمْين . إنّه نفسٌ فقِيرة ، حسودٌ وعنيف ، ولاصدِيقَ له . ولاشّكَ عندِى فى أنّه بالضرورةِ مضطرِبٌ وتعِيسُ الحظّ » .

* * *

فى عامِ خمسمائةٍ وعشرين هجرية ، ألفٍ ومائةٍ وستةٍ وعشرينَ ميلادية ، كانَ ميلاد ابنُ رشد الحفِيدِ ، الفيلسوفُ الطبيب .

وفى عامِ خمسمائة وخمسةٍ وتسعِين هجرية ، ألفٍ ومائةٍ وثمانيةٍ وتسعينَ ميلادِية ، كان ودَاعُه للدّنيا .

رقم الايداع بدار الكتب

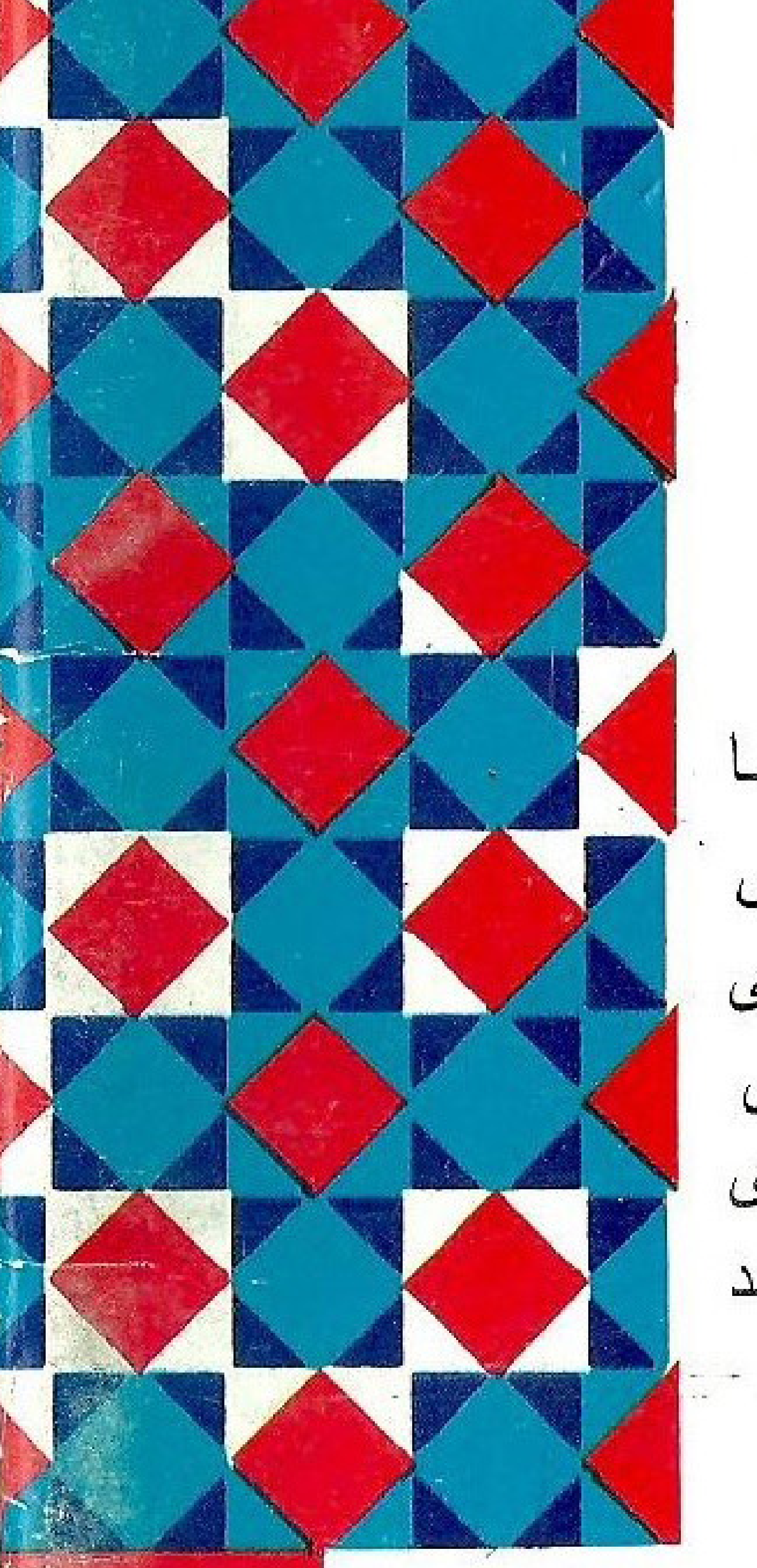
٨٩ / ٤٧١٩

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب
١٢

ابن رشد

آخر الفلاسفة العرب وأعظمهم أثرًا . عاش بالأندلس فى القرن الثانى عشر الميلادى فقيهًا ، وفيلسوفًا ، وقاضى قضاة وطبيبا للسلطان ، يدعو للعقل والمدنية والمساواة بين الرجال والنساء ، ويوفق بين الدين والعلم ، وبين الدين والفلسفة ويعرض وينقد أفكار الفلسفة المشرقية والمغربية ، ويطورها ، ويهز بفكره وكتبه الدنيا بأسرها ، وتثير أفكاره موجات من الرضا والغضب فى أوربا طوال عدة قرون ، فلم يخف أبدا أعداءه لاستبداد الطغاة والفقهاء . إنها قصة تثير الفخار . يقرؤها الصغار والكبار .



صدر من هذه السلسلة

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر